

رثاء المرأة بين الغياب والحضور في التراث النقدي العربي (دراسة في ضوء نظرية القراءة والتلقي)

أ.م.د. ثائر عبد الزهرة لازم
جامعة البصرة / كلية الآداب / قسم اللغة العربية

Lamenting women between absence and presence in the
Arabic critical heritage
(A study in the light of the theory of reading and receiving)

Asst. prof. Dr. Thaer Abdel-Zahra Lazem
University of Basra/College of Arts/Department of Arabic
Language

الملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة صورة المرأة المراثية على وفق نسق معرفي يتمحور حول ثنائية الغياب والحضور منبثقا عن فكرة تنظر إلى المرأة بوصفها موضوعاً شعرياً، إذ يتتبع مراحل تطور هذه الموضوعة إلى جانب استجلاء رؤية النقد العربي القديم من رثاء المرأة التي تفصح عن غياب فاعل، وعدم اهتمام برثاء المرأة ضمن تسلسل زمني يتغير فيه هذا الغياب ليحضر على استحياء، ثم يتطور إلى حضور فاعل، واهتمام جاد برثاء المرأة. على أن جدلية الغياب والحضور لا تكاد تختفي مهما تقدّم العصر، إذ تتمظهر بأشكال متباينة من حين إلى آخر؛ وذلك يرجع إلى اسباب سوسيو ثقافية .

ولابد من التنويه إلى أن هذا البحث لا يعنى بدراسة رثاء المرأة في تراث الشعر العربي إلا بالقدر الذي تقتضيه فكرة البحث، إذ تعالج هذه الموضوعة ضمن إطار النقد العربي القديم على وفق رؤية بحثية تمزج الماضي بالحاضر؛ ولأجل مواصلة الجديد وفهمه أفاد البحث من منهج القراءة والتلقي؛ لئلا ينكفى على الماضي، وينغلق على موروته .

الكلمات المفتاحية (النقد الأدبي، رثاء المرأة، الغياب، الحضور)



Abstract

This research aims to study the image of the epitaph of the woman according to an intellectual pattern centered on the duality of absence and presence. It stems from the idea of looking at women as a poetic theme. It traces the developmental stages of this topic and clarifies the vision of ancient Arab criticism of lamenting women that reveals a significant absence. Then, the lack of the interest in women's lamentations within a chronological sequence in which this absence changes to present shyly. Later, it develops into an active presence with a serious interest in women's lamentations. However, due to socio-cultural reasons and no matter how advanced the age is, the controversy of absence and presence hardly disappears as it appears in different forms from time to time.

It should be noted that this research is concerned with the study of women's lamentations in the heritage of Arabic poetry to the extent required by the idea of the research since it deals with this topic within the framework of ancient Arabic criticism according to a research vision that mixes the past with the present. In order to continue and understand the recent research interest, the study benefited from the approach of reading and receiving.

Keywords: literary criticism, lamenting women, absence, presence



المقدمة:

الحمدُ لله رب العالمين، وأفضل الصلاة، وأتمّ التسليم على خاتم المرسلين محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين. أمّا بعد فلا شك أن فسحة البحث في موضوع جديد له أهمية واضحة في حرية الكتابة، والانفتاح على معالجات قضايا جدية بأن يلج إليها الباحث؛ لأجل سرّ ما فيها من نكات تستحق أن تكون إضافة علمية لما تطلع به من توقعات تمثّل أفق انتظار القارئ الذي يتغيّر جرّاء مقاربة هذه الموضوعات، لينتقل إلى مرحلة تعديل أفق هذا الانتظار، الأمر الذي يحدث كشفًا جديدًا عبر ملء الفجوة التي تضعه أمام نسق مغاير كان قد تسبّد المشهد الثقافي إلى حدٍ كبير، وهذا يعني أن الإبداع الشعري لا يمكن أن ينظر إليه مقيدًا بالاشتراطات التي وضعتها جماعة ما؛ لأنّ (الشاعر) حتما سيكسر هذه القيود ولا أدلّ على ذلك التحولات الكبرى التي رافقت مسيرة الشعر العربي عبر عصوره المختلفة.

ولعل موضوعة البحث التي تتناول المرأة بوصفها مرثية هي داخلية في إطار هذه التحولات من هنا كان اختيار هذا الموضوع بحثاً الخطي باتجاه طرح فكرة، إذا ما كتب لها النهوض بالتصورات التي تبناها هذا البحث فهي لا شك تفتح الباب أمام الباحثين في إعادة قراءتها بروى ربما أغفلها البحث، أو سكت عنها. ومن ثم تحفيز القارئ، للنظر فيها مجدّداً، والتناصّ معها على نحو يعطي مبرراً لتعدّد القراءات انسجاماً مع حركة الفكر الإنساني التي انبثقت عنها مجموعة من النظريات المعرفية والفلسفية. وحتى يثير البحث فضول القارئ ويغريه، ويتيح له فرصة تحضير أفق انتظاره عمدنا إلى ذكر الفرضيات والاستئلة في طيات هذا البحث. ومن الله تعالى نسأل التوفيق، والسداد.

رثاء المرأة في النقد الأدبي عند العرب:

لقد مثّلت المرأة حضوراً لافتاً في الشعر العربي والنقد القديم، إذ ازدحمت دواوين الشعراء بقصائد تتغنّى بها، فتارة تجيء في مقدمات هذه

القصائد على نحو ما شهدناه في غرض المديح، والهجاء، والفخر... الخ وتارة أخرى تستحوذ المرأة فيها على القصيدة برمّتها ولا أدلّ على ذلك القصيدة الغزلية التي قلّما نجد شاعراً لم يكن له نصيب منها إن لم تكن قد احتلّت المكان الأوفر في دواوين بعض الشعراء بحيث وجدنا قسماً منهم قد اشتهر بهذه القصيدة، ولا يقتصر هذا الحضور على دواوين الشعراء فحسب، بل تعدّاه إلى أن يأخذ بعض مؤلفي كتب النقد العربي القديم بنظر الاعتبار الحديث عن المرأة بوصفها مبدعة من جهة وموضوعاً شعرياً من جهة أخرى. وهذا ما نجده مثلاً في كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي (ت ٢٣٢هـ) الذي عدّ فيه الخنساء بمصاف الشعراء الفحول، إذ وضعها في طبقة المرثي، وكذلك كتاب ديوان الحماسة لأبي تمام (ت ٢٣١هـ) الذي وضع فيه باباً سماه (النسيب)، ناهيك عن باب آخر يدعى (باب مذمة النساء). ولعل هذين البابين يغريان الباحث بالتساؤل عن المفارقة الحادثة بين باب النسيب الذي تمتدح فيه صفات المرأة في مقابل الباب الآخر الذي تذمّ فيه بعضاً من صفاتها، إذ يرجع الباحث هذه المفارقة إلى مؤثرات سوسيو ثقافية دفعت أبا تمام في كتابه هذا إلى أن يضع نصب عينه العرف السائد في المجتمع العربي آنذاك، إذ أن التقاليد الشعرية أصبحت موجّهةً نقدياً يحتكم إليه النقاد العرب القدماء إلى جانب الغرض الشعري الذي يتسع فيه التأويل...

لقد استحسن النقد العربي القديم شعر الرثاء الذي ينظم على وفق ما توافقت عليه الجماعة تبعاً لمنظومة القيم الفحولية. على أن الرثاء يقترب من المديح والفخر طالما اتبع فيه الشاعر مقررات هذه القيم إلا أن هذا لا يعدم وجود فرق بين الرثاء من جهة والمديح والفخر من جهة أخرى، إذ يكمن ذلك في مقدار العاطفة التي هي من ميّزات شعر الرثاء ولا سيما، إذا كان الرثاء موجّهًا إلى المملوك، والرؤساء الكبار. وما يؤكّد ذلك قول ابن رشيق "وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجّع بين الحسرة مخلوطاً بالتلهّف والأسف



تجعل الشاعر مكبلاً بقيود سعى النقد العربي إلى تقنينها ضمن الأسس والمنطلقات التي امتاز بها النقد العربي القديم.

على أن أبرز الآراء النقدية التي قيلت بصدد موضوع رثاء المرأة بحيث أصبح معياراً نقدياً يفرض نفسه بقوة في الوسط النقدي عند العرب إلى الحد الذي بدا من مسلمات ذلك النقد ما جاء على لسان ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة، إذ قال: "أشدّ الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثي طفلاً أو امرأة، لضيق الكلام عليه فيهما، وقلة الصفات"^(٤). والناظر إلى هذا النص حريّ به أن يملأ الفجوة التي تركها، لماذا يضيق الكلام على المرأة، وتقلّ الصفات في رثائها، بينما يتسع الكلام، وتكثر الصفات في غزلها؟ وهل هذه الصعوبة وحدها أدّت بالشعراء إلى الإعراض والتزام الصمت في هذا اللون من الرثاء؟

على أن مستقرّ الآراء النقدية القديمة عند العرب يجد أنها كانت صادرة عن خلفيات ثقافية معدّة سلفاً أدّت إلى توجيه أدائهم النقدي وبذلك ستنشأ علاقة وثيقة بين موجّهات القراءة ومرجعيات القارئ.

إن ما تنتجه الأعراف، والعادات والتقاليد في أي عصر من العصور تؤثر لا محال في نتاجاته الأدبية، ولا يكون هذا التأثير في الأدب وحده، بل سيأخذ النقد حظاً أوفر منه؛ لأن الأديب، والناقد كلاهما فرد يتأثر بالمجتمع.

ويبدو أن رثاء المرأة من الموضوعات الشعرية التي لا يحتفل بها العربي، إذ يعدّها خرقاً لمنظومة القيم الثقافية، وكسراً لأفق الانتظار، إذ كانت الصدارة للرجل على المرأة وفقاً لمفهوم الفحولة بوصفها اللبنة الأساس في النظرية النقدية عند العرب، حيث أشار إلى ذلك الأصمعي، فقال "طريق الشعر هو طريق شعر الفحول، مثل امرئ القيس، وزهير والنابعة من صفات الديار والرحل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الخمرة والخيول والحرب والافتخار"^(٥)، وهذه الموضوعات الشعرية التي ذكرها

والاستعظام، إن كان المبيت ملكاً أو رئيساً كبيراً"^(١). إن الرثاء لم يأخذ نصيباً وافراً من اهتمام النقاد العرب القدماء، إذ لم يدرس دراسة شاملة تتضح فيه سمات كل نوع من أنواعه مكتفين باستحسانهم إياه من غير بيان أسباب ذلك الاستحسان^(٢). ويبدو أن عدم الاهتمام هذا في استكمال دراسة القصيدة الرثائية يرجع إلى رأيهم القائل "أصغر الشعر الرثاء لأنه لا يعمل رغبة ولا رهبة"^(٣). ولعل هذا الرأي لا يخلو من الانحياز للمديح وتفضيله على الرثاء الأمر الذي لا يمكن قبوله بطبيعة الحال؛ لأن معطيات الرثاء تقترب من المديح في نقطة التقاء تجعل من الصعوبة بمكان الفصل بينهما تماماً أي أنهما يتوافران على القيم الذكورية التي اشتراطها النقد القديم في قبول كلٍ منهما ولا سيما في مناسبتين متزامنتين تحدث عادة في ذهاب خليفة (موت) وتنصيب آخر، وذلك ما عرفت به عناوين كتبهم ونعني به التعازي والتهاني، إذ اشتهرت كثير من مصنفاتهم بهذا العنوان مثل كتاب التعازي و المراثي للمبرد (ت ٢٨٦) وغيره.

لقد أكثر شعراء العربية من النظم في هذا الغرض كثرة بالغة تنوع فيها الرثاء إلى عدة أنواع منها رثاء القادة والأمراء، والأهل، والأصدقاء وعلى الرغم من ذلك وجدنا جانباً منه لم يحظ باهتمام الشعراء، ونعني به رثاء المرأة. وإن وجدت بعض القصائد في رثاء المرأة عبر العصور الأدبية المختلفة، فهي قليلة تتردّد بين الغياب والحضور المطلق تارة، والنسبي تارة أخرى، إذ شكّلت هذه الثنائية ظاهرة في الشعر العربي القديم. ومع أن الرثاء باب واسع من أبواب الشعر العربي إلا أنه يضيق عندما يتصل بالمرأة التي يتوجّه نحوها الرثاء وتصبح آفاقه أقلّ حرية؛ لأنه خطاب يتقاطع مع النزعة المعهودة بإظهار البأس وقوة الشكيمة عند العرب كما أن خلّو دواوين أكثر الشعراء في الموروث العربي من رثاء المرأة، دليل على عدم وجود شيء يشجّع على هذا النوع من النظم، بل على النقيض من ذلك كانت الموجّهات الفكرية والثقافية، وكذلك السنن المجتمعية والتقاليد الشعرية



واشترط الناقد العربي على الشاعر هذه المواصفات أم أن الزمن أي العصر الذي ينتمي إليه هذا اللون من الشعر هو الحاكم على مسألة الغياب، والحضور هذه؟.

ويبدو أن التضاد في ثنائية الغياب، والحضور يعود إلى اشكالية مكانة المرأة في المجتمع مرتبطة بمجموعة من التصورات الثقافية بحكم تقادم العصر، ومراحل تطور المجتمع العربي آنذاك، إذ يظهر أن أبا تمام في حماسته استوحى باب مذمة النساء من التراث الشعري القديم الذي أفصح في جوانب منه عن ضعة المرأة الأمر الذي نلاحظه أيضاً في كتاب أخبار النساء لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ).

ويخيل لي أن الأسباب التي دفعت إلى أن يكون رثاء المرأة من الموضوعات الشعرية التي يضيق القول فيها بحسب الخطاب النقدي العربي القديم يرجع إلى التقاليد المجتمعية التي أعلت من شأن الرجل مقابل الحط من شأن المرأة. إلى جانب وجود مرجعيات ثقافية تقف وراء هذا، وفي مقدمتها المرجعيات الدينية والاسطورية وأخرى ترتبط بالنصوص المعبرة عن الثقافة العربية المتنوعة.

إن قلة رثاء المرأة لا يعني تحجر قلب الشاعر وجمود مشاعره أمام الحوادث المفجعة، بل هو اندماج في سياق اجتماعي سيطرت عليه ثقافة غرست في أذهان أتباعها أن بكاء الرجل على المرأة عجز، ونقص في الرجولة. على أن الإنتاج الأدبي كما يقول لوكاتش "جزء لا يتجزأ من العملية الاجتماعية العامة"^(٨).

وهكذا أخبرنا تاريخ العرب أن المرأة كانت وسطاً هامشياً ينزع التبعية لسلطة الذكر، ويأخذ وسم الضعف على الدوام، هذا الضعف الذي صار موضوعاً راکزاً في الفكر النقدي العربي القديم من جهة تقييم جودة الأثر الشعري، تبعاً لسياقات التكريس الثقافي السائد لما فيه، وفي مخرجاته من آثار على هذه الجودة وفقاً لتصوّرات النقد القديم. وقد ترشّح عن ذلك التصوّر بنية عامة في تشكيل الموضوع الأنثوي في القول

الأصمعي ليس فيها غرض الرثاء، فما بالك برثاء المرأة! وأرى أن عدم ذكر الرثاء هنا يرجع إلى أن النقد القديم كان يعد الرثاء صنو المديح سوى "أنه ليس بين المراثية، والممدحة فصل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على انه لهالك"^(٦).

وبما أن المدح يرمي فيه الشاعر إلى ذكر الفضائل النفسية التي يمدح بها الحي فكذلك الرثاء يشير إلى نبل الخلق، والقصد، فهو عندهم تعداد لمحاسن الميit وأخلاقه الحميدة وعلى هذا لا فصل بين الممدحة والمراثية "إلا أن يخلط بالرثاء شيئاً يدل على أن المقصود به ميت، مثل "كان"، أو "عدمنا به كيت وكيت"، أو ما يشاكل هذا ليعلم انه ميّت"^(٧).

من هنا نستشف أن الرثاء يتماشى مع المديح في انشاد القيم الذكورية فالذي لا ينظم شعره على وفق هذه الرؤية يجد نفسه متخلفاً عن ركب الشعراء الذين ينظمون في الغرض نفسه وفقاً لما هو سائد في عرف الشعراء، والنقاد على حدّ سواء. وتأسيساً على هذا المبدأ يمكن طرح السؤال الآتي وهو: هل يضيق رثاء المرأة، ويصعب على الشعراء؟ والجواب: نعم، ولا سيما أنهم في المديح والرثاء يعمدون إلى إلصاق الصفات الحميدة بالذكر حصرياً من قبيل الشجاعة، والكرم، والمروءة التي لا يوافقون أن تمّتدح، أو تترثى بها انثى. فالصفات الحميدة التي يمدح بها الرجل لا يمكن أن تمّدح بها النساء، إذ ستكون ذمّاً لهن في المنظور النقدي القديم. وهذا ما يعطي مبرراً لقلّة شعر رثاء المرأة في الأدب العربي القديم على وجه العموم.

وعلى هذا فنحن أمام مشكلة تقول بغياب، أو قلة رثاء المرأة انسجماً مع ما ألمح إليه نقاد العرب القدماء الأمر الذي يدعوننا إلى التأمل في هذه المسألة بحسب ما يتوفّر لدينا من مادة نقدية قديمة تكلمت في هذا الخصوص على نحو مباشر، أو غير مباشر؛ وذلك بقصد استجلاء موقف النقد العربي القديم من شعر رثاء المرأة، ومعرفة أين ومتى يكون الغياب؟ وكذلك معرفة أين ومتى يكون الحضور؟ ومن ثم هل يكون الغياب والحضور بمواصفات هذا اللون من الشعر،



رثاء المرأة بين الغياب والحضور ...

التقاليد الشعرية، ورثى حرم الأمير كما يرثي أهله " ما باله يسلم على الحرم، ويتشوق إلى الأمهات !ومن سبقه إلى هذا! وإنما يفعل ذلك من يرثي بعض أهله، وأما استعماله إياه في هذا الموضوع فدال على ضعف البصر بمواقع الكلام"^(١٤)، فالمتنبى في نظرهم ضعيف بمواقع الكلام لأنه لم يكن على دراية بطبقات النساء ومراتبهن، فخطب نساء الملك كما يخاطب بعض أهله وهكذا تكون الموجهات الثقافية فاعلة في تشكيل المفاهيم المجتمعية التي تعمل بدورها على تقييد المرأة بصفات معينة لا يمكن أن تقتزن بصفات الرجل الأمر الذي بدا أثره واضحاً في الإبداع الشعري والنقدي على حد سواء.

ومن المؤكد الذي لا يقبل الشك أن هذا من ضمن الأسباب التي تفسر صعوبة رثاء المرأة؛ لأن الخصال الحميدة التي يوصف بها الرجل لا يمكن أن توصف بها المرأة، إذ ستكون دماً وانتقاصاً لها بحسب العرف السائد. وعلى هذا فلا علاقة لغرض التكسب في مسألة ضيق القول في رثاء المرأة كما ذهب إلى ذلك أحد الباحثين^(١٥).

على أن مقياس الفحولة الذي كان يمثل أساس العملية الإبداعية حسب الخطاب النقدي أسهم بشكل أو بآخر في تضيق أفق الشاعر في موضوعه رثاء المرأة، إذ يبدو أن ابن رشيقي^(١٦)، كان متنبهاً لصعوبة اتساع هذا الأفق لدى الشاعر.

رثاء المرأة بين الغياب والحضور:

إن الأفكار التي تتراءى لنا عند قراءة الشعر العربي والنقد القديم ما زالت بحاجة إلى النظر والتأمل في مركزية الثقافة العربية التي همشت الأنوثة، وأقصتها لحساب المهيمن، والسائد (مفهوم الفحولة). الأمر الذي يدعونا إلى إعادة انتاج هذه المفاهيم، ومن ثم اسقاطها على موضوعه رثاء المرأة في التراث النقدي العربي وتجدر هنا الإشارة إلى أن مقارنة رثاء المرأة عبر عصور الأدب المعروفة لم تكن غاية هذا البحث وإنما هي وسيلة تعين القارئ على بيان مواكبة النقد لموضوعه رثاء المرأة، إذ من المعروف أن النقد يأتي

الشعري القديم. وبالرغم من أننا نجد المرأة حاضرة في القول الشعري العربي بقوة، غير أن هذا الحضور يأتي لصالح السلطة الذكورية (الفاعل المنشئ) على وفق حسابات الموضوع الشعري، وضمن أطر وصفات وضعها السياق الثقافي له، وحتى التشبيب، والغزل وهو من مكونات بناء القصيدة العربية القديمة فإنه يعنى بجانب جندي بحث، يبرز ملامح الضعف الأنثوي، ويحصرها في ميدان واحد، وهو ميدان يفصلها عن السلطة ويوشحها بصفات لا تليق بالرجل، ويصور تمثلات الذكورة في الموضوع الغزلي فيحتفي بهذه الخصيصة إشارة منه إلى نكوص أي خصائص أخرى هي من اختصاص الرجل، وهذا ما يمكن تلمسه في عبارة الحصري القيرواني، إذ قال: "الا ترى ان الجود والوفاء بالعهود والشجاعة والفطن وما جرى في هذه السنن من فضائل الرجل ولو مدح النساء به لكان نقصاً عليهن وذمّاً لهن"^(١٧).

وقارئ النص هذا يلاحظ الحاح النقاد العرب القدماء على سيادة مفهوم الفحولة بوصفه البوصلة التي توجه قراءاتهم الشعرية ولا أدل على ذلك توجيههم بيت المتنبي في رثاء أخت سيف الدولة^(١٨)

غدرت يا موت كم أفنيت من عدد

بمن أصبت وكم اسكت من لجب
فإضفاء الشاعر صفات تصور المرأة غازية للجيوش، وأسرة للأعداء شيء مذموم في النساء؛ لأنه عندهم "يدل على رجوليتها، والمرأة المرتجلة من النساء المذمومة، وقلمًا توصف بهذه الصفات"^(١٩)

وكذلك توجيه النقاد بيت المتنبي في رثاء أم سيف الدولة^(٢٠):

بعيشك هل سلوت؟ فإن قلبي

وإن جانبت أرضك غير سأل
و بيته في رثاء أخت سيف الدولة^(٢١):

وهل سمعت سلاماً لي ألم بها

فقد أطلعت وما سلمت من كذب
إذ رأى النقاد أن أبا الطيب قد خرج عن



في مرحلة تالية للأدب. وربما يسأل سائل عن جدوى الحديث عن العصر الذي غاب فيه هذا اللون من الرثاء فتأتي الإجابة بأن هذا يدخل في إطار البحث عن جذور هذه القضية وامتدادها في الشعر العربي والنقد القديم على حد سواء، وفي تتضح فكرة غياب وحضور رثاء المرأة في النقد لا بد من قراءة تعتمد الآليات الآتية:

رثاء المرأة والغياب المطلق

ونعني به إعراض الشاعر عن رثاء المرأة سواء كانت أمًا، أو أختًا، أو زوجة، وهذا تحديدا نجده في شعر العصر الجاهلي، إذ لعل من الأسباب التي أدت إلى هذا الغياب نظرة العرب إلى المرأة نظرة نابعة من طبيعة المجتمع على اختلاف مشاربه والعصر الذي ينتمي إليه؛ ولأجل إضاءة هذه الجزئية من البحث جدير بنا أن نسأل: هل كان الرجل يعامل كيائها الأنثوي بما يستحق الاحترام، أم أنه يعدّها سلعة تباع وتشترى في سوق المتاع؟ ولأشك أن الجواب على هذا السؤال يتطلب معرفة كبيرة بأحوال ذلك المجتمع، والتقاليد التي كانت سائدة فيه.

إن مكانة المرأة في ذلك المجتمع كانت متدنية، إذا ما قيس بمكانة الرجل، فقد كانت العرب تحب الذكور وتفضلهم على الإناث؛ لأنهم جنود القبيلة وفروسانها ورجالها الحماة "أما المرأة فلا تغني في الحرب شيئا، بل تكون عبئا على القبيلة؛ لأنها مقصد الأعداء، فتؤخذ سبية، وسي المرأة عاراً لا يسكت عنه ولا يقعد دونه إلا الوغد الذليل" (١٧). والحديث عن ازدراء المرأة في العصر الجاهلي لا يتوقف عند هذا الحد فالرجال يتمتعون "لولادة البنات حتى لقد كانوا يستترون إذا ما ولدت لهم بنات حياء من القوم، وكأنهم اقترفوا ذنباً وارتكبوا عاراً" (١٨).

إن غياب رثاء المرأة في شعر العصر الجاهلي، ارتبط ارتباطاً وثيقاً بصورتها في ذلك المجتمع، وب نظرة الرجل إليها، وقد كان رثاء الرجل للمرأة غير مستحب وليس مقبولاً في مجتمع تسوده الرجولة، والعنجهية التي تقوي من مكانة الرجل، وتجعل المرأة عنصراً غير

مساوٍ له. فالرجل لو فعل ورثى امرأته لاثمهم بالضعف، والجزع عليها علماً أن صفة التجلد وعدم استشعار الجزع كانا معروفين لدى الجاهليين، إذ يعدّ ذلك نقصاً في الرجولة (١٩)، لذا بقيت المرأة في ذاكرته تمثّل صورة الشر الذي سيقع عاجلاً أم آجلاً، هذا وما تقدّم من أسباب دفعهم إلى وأد البنات، إذ قال عز من قائل ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (٢٠) وهنا يتضح استنكار القرآن الكريم لفعلهم المشين تجاه المرأة. على أن المجتمع العربي الجاهلي كان لا يعطي للمرأة حقّها الطبيعي في العيش إلى الحد الذي يرى فيه أن نكاح المرأة يجعل الرجل يعترض على هذا الفعل مع ابنته؛ لأنه يرى وقوع النكاح في هذه الحالة معه لارتباطها معه بالنسب (٢١).

وانطلاقاً من هذا المنظور (السوسيو ثقافي) يرى الرجل الجاهلي بأن المرأة غير جديرة بالاحترام والتقدير وأن الاحترام يفسد المرأة، ويضعها في مرتبة إنسانية لا يرتضيها سلوكه، ولا تفكيره البدوي، فمثلاً "كان العرب يأنفون أن يداعب الرجل وليدته، أو أن يسمح لها أن ترح بين يديه" (٢٢)، ولذا أصرّ الرجل البدوي على موت المرأة حتى في حياتها التي قد يسمح في أحيان قليلة أن تعيش فيها، فهو يحتقرها بسلوكه وتفكيره وقد نسي ولو لحظة واحدة من الزمن بأنها هي التي منحتة الحياة التي يرفل فيها منعماً حراً ليحقد عليها وينتقم منها شرّ انتقام. ولا يقتصر الأمر على هذا الحد، فقد كان يشك ويغار عليها حتى، إذا أراد أن يسافر من مكان إلى آخر كان يعمد إلى شجرة فيعقد بين غصنين فإن عاد ووجدتهما على حالهما عرف أنها لم تخنه وعكس ذلك فهي الخيانة (٢٣). هل توجد مثل تلك السذاجة في التفكير والتصرف تجاه المرأة؟ وهل من الممكن تصديق تلك الرواية وإلى أي مدى وصلت الاستهانة بالنصف الآخر من المجتمع؟ ومهما يكن فذلك العصر الذي عاشت فيه المرأة لم يعطها أي حقّ بالحياة.

ولعل جذور هذه النظرة السلبية للمرأة امتدت بحيث أصبحت لها تمثيلات في الشعر والنقد



رثاء المرأة بين الغياب والحضور ...

الشاعر الجاهلي الذي جعل من رثاء المرأة أرضاً جرداء يتعذّر فيها العثور على ما يروي ظمأ الناقد. وخير من يمثل هذه الحقيقة كتاباً فحولة الشعراء للأصمعي، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، إذ نجد تبلور هذه الفكرة سواء في العنوان والمعنون. وأخيراً لا يفوتنا أن ننوّه إلى مسألة في غاية الأهمية وهي أن الشاعر كان يمثل الوسيلة الإعلامية التي كانت القبيلة تعتمد عليها في السلم والحرب، إذ لا يكاد يتكلم إلا بصوتها مدافعاً، ومنافحاً عنها فهو لسان القبيلة الناطق باسمها، والمعرب عن ثقافتها، ومعارفها. من هنا نفهم أن الشاعر كان يضع شعره في خدمة القبيلة. ومعنى ذلك أن غياب قصيدة رثاء المرأة في ذلك العصر يكون طبيعياً على وفق هذه النظرة وهكذا ظلّ الشاعر يمثل صوت الجماعة في العصر الجاهلي وصوت الحزب السياسي في العصر الأموي.

رثاء المرأة والحضور النسبي

ونقصد به وقوع هذا اللون من الشعر على نحو يتوازى فيه الغياب، والحضور بمعنى أنهما يمثلان نسبة لا تمكّن أحدهما من التفوق على الآخر. وهذه المرحلة تبدو جلياً في العصر الإسلامي، والأموي، إذ أن تأثير أفكار الدين الإسلامي، وتعاليمه السمحة، أثّرت تأثيراً واضحاً في المجتمع البدوي في عدة مجالات، بيد أن هذا لا يعني انعدام بعض المفاهيم القبلية السائدة. وعلى هذا فلا غرو من قلة رثاء المرأة في شعر هذا العصر، إذ "يفهم من بعض الشعراء أن الحزن على النساء لم يكن مقبولاً عند العربي" (٢٧). إن رثاء المرأة عند الشعراء الإسلاميين والأمويين لم يختلف اختلافاً كبيراً عنه في العصر الجاهلي، إلا أنه لا يعدم وجود اختلاف في نوعية هذا اللون من الشعر، ولا سيما عند بعض الشعراء الكبار. ومع ذلك فتأثير الإسلام بدا واضحاً في كثير من المواقف التي أعلى فيها من شأن المرأة، وقد تمثّل ذلك بأجلى صوره في القرآن الكريم الذي تكلم عن المرأة بوصفها عنصراً يحقق تكامل الوجود الإنساني إلى جانب الرجل، فتارة جاء ذكرها ضمناً في آيات من الذكر الحكيم،

على نحو ما جاء لدى بعض الشعراء من العصور التالية لهذا العصر، فالبنّت عورة في نظر أبيها ويجب أن تستر عن الأنظار لكي يجد الراحة والطمأنينة، إذ يرى الشاعر عبید الله بن عبد الله بن طاهر أن القبر لأبنته خيرٌ له من الزوج والبيت (٢٤) لكل أبي بنتٍ يرجى بقاؤها

ثلاثة أصهارٍ إذا ذكر الصهرُ
فبيّت يغطيها وبعّل يصونها

وقبرٌ يُوارِيها وخيرُهما القبرُ
فالشاعر هنا لو خيّر بين الثلاث لأختار دون أن يتردّد القبر؛ لأن بقاء ابنته على قيد الحياة سيقصّ مضجعه فالقبر هو السبيل الوحيد لراحته. ويتكرّر هذا المعنى نفسه لدى الشاعر عقيل بن علقمة، إذ قال: (٢٥)

إني وإن سيق إلي المهرُ
ألف وعبدانٌ وذودٌ عشرُ
أحبُّ أصهاري إليّ القبرُ

ومن العجيب أنّ الحصري القيرواني الذي ينمّ اختياره لهذه الأبيات عن استحسان لها، يذكر أن هذا الشاعر أغير العرب (٢٦)، وهذا الوصف يكشف لنا عن نسق مضمّر يشير إلى تواطؤ الناقد مع الشاعر في تكريس احتقار المرأة، ويبدو أن تأثير ذلك لا يمكن حصره في عصر بعينه حيث مازلنا نلاحظ ترسباته إلى يومنا هذا. ولعل هذا يرجع إلى أن العرب غالباً ما تستنكر رثاء نساءها؛ لأن الصفات التي تمتاز بها بعضهن لا تعدّ خصيصة بقدر ما هي من ضمن الواجبات الحتمية على المرأة القيام بها تجاه من ترتبط معه بالنسب. ومتصفّح كتب النقد العربي القديم في القرن الثالث الهجري يجد أنها هي الأخرى تخلو من الحديث عن رثاء المرأة، وكيف لا؟! وقد طفق الناقد العربي يؤلف مصنفات تتجلى في عناواناتها إبراز صفة الفحولة بوصفها قيمة ذكورية بمواصفات ذلك النقد الذي أن اردنا أن ننصفه جراء تغييب صفة الأنوثة نقول إن الناقد لم يتكلم في هذه الموضوعات ليس بناء على ما ذكرنا فحسب، وإنما يرجع ذلك لصمت



وفي هذه الأبيات يصور الشاعر حالة من العواطف الإنسانية، على أن القصيدة لم تكن خالصة في رثاء المرأة، إذ خصص فيها الشاعر جزءاً لهجاء الفرزدق الذي عابه مستنكراً عليه فعل ذلك حيث أن الشعراء لم يتأثروا معظمهم بتعاليم الدين الإسلامي، إذ بقي بعضهم على جاهليته، وقد صور القرآن الكريم ذلك بقوله تعالى ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَإِذَا قُلٌّ لَّمْ تُوْمِنُوا وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِثْمُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (٣١) فالدين الجديد لم يحتو كل العرب فكراً ومعنى ولا سيما في تعاطيهم مع رثاء المرأة، على نحو ما نجده في شعر الفرزدق الذي يعدّ المرأة أهون مفقود، إذ قال (٣٢):

يقولون:

زر حدراء والترّب دونها
وكيف بشيء وصله قد تقطعا
ولست، وإن عزت عليّ بزائر
تراباً على مرسومة قد تضعها
وأهون مفقود إذا الموت ناله
على المرء من أصحابه من تقنعا
وقال أيضاً (٣٣):

تبكي على امرأة وعندك مثلها
قعساء ليس لها عليك خمار
إن الزيارة في الحياة ولا أرى
ميتاً إذا دخل القبور يزار
ورثيتها وفضحتها في قبرها
ما مثل ذلك تفعل الأخيار
وقد وصف أحد الدارسين قول الفرزدق هذا "يقول في حدراء في جفاء يصل إلى حدّ التوحش الجاهلي" (٣٤). فالقصيدة لا شك تعبّر عن فكر، وسلوك جاهلي بحث لم يغيّره الإسلام، ما يدلّ على سيادة الثقافة الذكورية في مقابل دونية المرأة في المجتمع آنذاك.

وقد اقتفى كثير من الشعراء أثر الفرزدق في تكريس دونية المرأة، وتحقير أنوثتها زد على ذلك اتباعهم مطلب النقد القديم في تجسيد مفهوم الفحولة

وتارة أخرى جاء في سورة حملت هذا العنوان (سورة النساء) الأمر الذي دفع الرسول (صلى الله عليه وآله، وصحابته الاجلاء) إلى تطبيق هذا الأثر المقدس في المجتمع وانعكاس ذلك على النتاج الأدبي، إذ نجد طلائع هذا اللون من الشعر متجسّداً في أبيات أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في رثاء السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) (٣٨):
أرى علل الدنيا عليّ كثيرة

وصاحبها حتى الممات عليل
لكل اجتماع من خليلين فرقة
وكل الذي دون الممات قليل
وان افتقادي فاطماً بعد أحمد

دليل على أن لا يدوم خليل
ويظهر رثاء المرأة على استحياء في هذا العصر، إذ بدأ الشعراء برثاء أزواجهم، ولعل تأثير الروح الإسلامية كانت واضحة في شعر بعض الشعراء، ومنهم جرير بن عطية الذي رثى زوجته بقصيدة أطلق عليها الجوساء؛ لذهابها في البلاد (٣٩) إذ قال (٤٠):
لولا الحياء لعادي استعبار

و لزرت قبرك والحييب يزار
ولقد نظرت وما تمتع نظرة
في اللحد حيث تمكّن المحفار
فجزاك ربك في عشيرك نظرة
وسقى صداك مجلجل مدرار
ولهبّ قلبي إذ علتني كربة
وذوو التمام من بنيك صغار
أرعى النجوم وقد مضت غورية
عصب النجوم كأنهن صوار
نعم القرين وكنت علق مضية
وأرى، بنعف بلية الاحجار
عمرت مكرمة المساك وفارقت
ما مسها صلف ولا إقتار
فسقى صدى جدث بركة ضاحك
هزم أجش وديمة مدرار



رثاء المرأة بين الغياب والحضور ...

فالشاعر قد أتى بشيء لم يكن متوقعاً، إذ عمل على إيجاد المعادل الموضوعي الذي أتاح للمرأة فرصة الحضور المطلق، وبذلك يكون قد قلب المعادلة التي كانت تقول إن الرثاء يكون في الرجال لافي النساء. ولا أدل على أن الناقد الذي له ثقة بالشاعر الكبير سيتلقى هذا اللون من الشعر بالقبول على نحو مغاير للمألوف والسائد طيلة الحقبة السابقة على العصر العباسي. ومعنى ذلك أن لموجهاً قراءة الشعر أثراً في حضور موضوعه رثاء المرأة. ومن هذا المنطلق نجد في حماسة أبي تمام اختياره لأبيات مسلم بن الوليد^(٣٧) في رثاء زوجته تتضمن حكماً نقدياً بجودتها.

حينئذٍ ويأس كيف يتفكان

مقيلاهما في القلب مختلفان

غدت والثرى أولى بها من وليها

إلى منزل ناءٍ لعينك دانٍ

فلا وجد حتى تنزف العين ماءها

وتعترف الاحشاء للخفقان

فعلى العكس من شعراء العصر السابق

وتحديداً الفرزدق الذي تبيّن موقفه السلبي من رثاء المرأة يجهر الشاعر بألمه، وحزنه، وبكائه لزوجته.

على أن الأمر يتسع كثيراً، ويصبح رثاء المرأة

من الأمور الطبيعية جداً، ولا جرم أن الأدب في ذلك العصر لم يكن أدباً تقليدياً، بل كان مبتكراً متجدداً

من حيث الموضوعات التي عالجه أو الأساليب التي كتب بها وهذا يدل على أن الشعر العربي شهد تجربة جديدة وفريدة من نوعها.

وعلى هذا فقد نظم كثير من الشعراء في

هذا الغرض عدة قصائد تتناول هذا اللون من الرثاء دون حياة أو وجل، بخلاف ما جاء في مطلع قصيدة

رثاء جرير لزوجته، ومن امثلة ذلك قصيدة الشاعر محمد بن عبد الملك الزيات^(٣٨) التي عدّها ابن رشيق أنها "من جيد ما رثى بها النساء وأشجاء وأشدّه تأثيراً في القلب"^(٣٩).

إذ قال:

إلى الحدّ الذي صار فيه الأمودج الذي يجب أن ينسج الشعراء على منواله، ولعل هذه النظرة تظهر حتى في مسألة حديث الشاعر عن الالهام في الشعر، فمثلاً نرى الشاعر أبا النجم العجلي يتفاخر على الشعراء بأن ملهمه الشعر ذكر لا أنثى، فيقول:^(٣٥)

إني وكلّ شاعرٍ من البشر

شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

ويبدو أن النقد في هذا العصر هو الآخر

كان له موقف سلبي تجاه شعر رثاء المرأة، إذ ما زالت التقاليد الشعرية لم تتحرّر من أسرها بالغرض الشعري المقيّد بمفاهيم اتفقت عليها الجماعة، ناهيك عن هيمنة الشاعر الكبير الذي كانت محاولاته تقع على نقيضين لا نجد لأحدهما تفوقاً على الآخر.

رثاء المرأة والحضور المطلق:

ونعني به حضور موضوعه رثاء المرأة حضوراً فاعلاً في العصر العباسي، إذ وجدنا الشاعر يتفنّن بهذه القصيدة، على نحو جسّد فيه البعد الإنساني والفلسفي. وذلك بمظهرين أحدهما شكلي والآخر مضموني.

وهنا نتحقّق لذة القارئ بكسر أفق التوقع،

إذ يكون بإزاء نسق مغاير افرزته الحضارة الجديدة التي نبذت وراء ظهرها قساوة البداوة، وعنت الإنسان غير المبالي بشيء سوى ما تدفعه إليه أناته في ظل العيش الذكوري السائد آنذاك.

إن الشاعر العباسي حاول إحداث طفرة

جديدة في تقبّل شعر رثاء المرأة، وعدم التفريق بينه، وبين رثاء الرجل إلى حدّ ما، وقد تحقّق له بعض التفوّق، إذ نجده يهزأ بما كان من إساءة وبخس لمكانة المرأة في المجتمع واحتقار وجودها الإنساني. ولعل هيمنة الشاعر الكبير بوصفها موجّهاً قرائياً كان لها الأثر البالغ في الوصول إلى هذه الغاية، إذ لا يرى المتنبي مثلاً من الانصاف الانحياز إلى الرجل، وتفضيله على المرأة فلكل منهما مكانة محترمة في ظل المنطق السليم، فقال:^(٣٦)

لفضلت النساء على الرجال

فما التأنيث لاسم الشمس عيب

ولا التذكير فخر للهِلال



يا طلعة طلعَ الحِمامُ عليها
وجنى لها ثمر الردى بيديها
رَوَيْتُ من دمها الثرى ولطالما
رَوَى الهوى شفتيّ من شَفَتِها
قد بات سيفي في مَجَالٍ وشاحِها
ومدامعي تجري على خَدِها
فَوَحَقَ نَعْلِها وما وطئ الحصى
شيءٌ أعزُّ عليّ من نَعْلِها
ما كان قَتْلِها لأني لم أكن
أبكي إذا سقطَ الغبارُ عليها
لكن ضننتُ على العيونِ بحُسْنِها
وأنفثُ من نظري الحسودِ إليها
وهذه الأمثلة وغيرها تسهم في تعديل
أفق القارئ الذي كان يعيش حالة من تخيب أفق
الانتظار، وذلك في العصور السابقة على العصر العباسي
بحيث صار الناقد (القارئ) يحثُ الخطي باتجاه ملء
الفجوة التي أفرزتها السنن، والتقاليد الشعرية، وليس
معنى ما ذكرنا من أمثلة أنها كل القصائد التي قيلت
في رثاء المرأة بل هناك كثير من القصائد التي لم نذكرها
لضيق مجال البحث هنا، نحو قصيدة رثاء أبي العلاء
المعري^(٤٣) لوالدته وأبي فراس الحمداني لوالدته^(٤٤) أيضاً.
إن قلة الصفات التي أوردتها القيرواني في العمدة^(٤٥)
هي ليست السبب الرئيس الذي يعلّل غياب وقلة رثاء
المرأة في بعض العصور الأدبية، بل أن هناك سبباً مهماً
جداً قد يفوق بعض الأحيان ذلك السبب، فالنظرة
السلبية للرجل الجاهلي في بداوته إليها، هو ابرز
الأسباب في قلة هذا النوع من الرثاء. ومع ذلك فقلة
الصفات التي علّل بها القيرواني، قد يقوم دليلاً ولكنه
ليس كافياً؛ لأن معظم الشعراء يخلقون الصفات
والصور الشعرية خلقاً من العدم، فكثيراً ما يمدح
الشاعر أميراً أو ملكاً بما ليس فيه، ويرمي عليه صفات
مثالية، وكذلك كثيراً ما يهجو فيأتي بصفات قبيحة
منكرة قد لا تكون موجودة فعلاً وواقعاً في المهجّو،
فهل يعجز عن إيراد بيت، أو مقطوعة في رثاء امرأة
قد تكون فيها صفات حميدة؟ فهذا المتنبي مثلاً على

ألا من رأى الطفل المفاقر أمه
بعيد الكرى، عيناه تنسكبان
وبات وحيداً في الفراش تجنه
بلا بل قلب دائم الخفقان
رأى كل أم وابنها غير امه
بيتان تحت الليل ينتحبان
ألا إن تجلا واحداً أن هرمته
من الدمع أو سجلين قد شفياني
فلا تلحياني أن بكيت فأما
أداوي بهذا الدمع ماتريان
وإن مكاناً في الثرى خط لحده
لمن كان قلبي بكل مكان
فهبني عزمت الصبر عنها لأني
جليد فمّن بالصبر لابن ثمان
والقصيدة من روائع قصائد رثاء المرأة يصوّر
فيها الشاعر حزنه لفقد زوجته، ويبدأها بالحديث
عن لوعة ابنه الصغير فالشاعر يشكو من خلال لوعة
ابنه، وهو ينظر إلى الأطفال كيف تحتضنهم أمهاتهم
وكيف يببت وحده في الفراش وهو بهذا يريد منا
أن نشاركه حزنه من خلال تجسيد حالة ابنه الصغير
ولقد وفق الشاعر إلى ذلك بلغته وأسلوبه” وقد أبدع
الزيات ابداعاً وتفوق كثيراً في التحليق بعالم الحنان
والرقة والحزن والألم والحسرة بحيث تحزن العين حتى
لو كانت بعيدة عن ذوي الارحام بالدموع الغزار
والعبرات المدرارة”^(٤٦).
على أن المرأة المरثية، إذا كانت من سائر
طبقات المجتمع فيرى النقاد أن الشاعر يعتمد في هذا
الرثاء توصيف المأساة من خلال الحديث عن حالة
الاطفال بعد وفاة امهم، واطهار اللوعة والأسى. من
هنا فطريقة ابن الزيات من وجهة نظر النقاد القدماء
محدثة ” فهذه الطريقة هي الغاية التي يجري حذاق
الشعراء إليها ويعتمدون في الرثاء عليها، ما لم تكن
المرثية من نساء الملوك وبنات الأشراف”^(٤٧).
ومن روائع المراثي أيضاً رثاء ديك الجن
لزوجته، إذ قال^(٤٨):



رثاء المرأة بين الغياب والحضور ...

تطور رثاء المرأة في العصر العباسي، إلا أن الشاعر يتحدث في رثائه المرأة عن شخصيات قريبة منها، إذ لم تكن التجربة الشعورية للشاعر خالصة في رثاء المرأة وما يؤكد ذلك قصيدة المتنبي في رثاء أم سيف الدولة، وقصيدة محمد بن عبد الملك الزيات في رثاء زوجته سالفتي الذكر. وهذا يعني أن جدلية الغياب والحضور ما زالت تمارس سلطتها على النص، والشاعر.

وعلى هذا فإن القصيدة التي يتوجّه بها الشاعر إلى رثاء المرأة إذا كانت تتحدّث عن شخصيات قريبة من المرأة أي: كأن يتحدث الشاعر عن اطفال هذه المرأة فمثل هذا النوع من الرثاء يتحقّق فيه حضور الرثاء شكلياً، وغيابه مضمونياً وكذلك يكون هذا الأمر في رثاء المرأة التي تنتمي إلى أسرة حاكمة، أو قريبة من ذلك، إذ يعتمد الشاعر في مثل هذه القصيدة إلى ذكر الصفات الكريمة للشخصية الذكورية التي تنضوي تحتها هذه المرأة؛ وذلك لأن العرب في منظورهم النقدي يعدّون مدح الرجل في مقام رثاء المرأة هو كمال لمدحها وعلى النقيض من ذلك نجد بعض القصائد في رثاء المرأة يتحقّق فيها حضوره مضمونياً وغيابه شكلياً ولعل ما يجسّد ذلك قصيدة الشريف الرضي في رثاء والدته التي مطلعها^(٤٨)

أبكيك لو نقع الغليل بكائي

وأقول لو ذهب المقال بدائي
وفيها يصف أخلاقها مخالفاً بذلك العرف
النقدي الذي يذهب إلى صعوبة رثاء المرأة لقلة صفاتها، إذ قال:

أنضيت عيشك عفة وزهادة

وطرحت مثقلة من الأعباء

بصيام يوم القيظ تلهب شمس

وقيام طول الليلة الليلاء

ما كان يوماً بالغيب من اشترى

رغد الجنان بعيشة خشنا

ولو كان مثلك كل أم برة

عني البنون بها عن الآباء

كيف السلو وكل موقع لحظة

أثر لفضلك خالد بإزائي

الرغم من أنه كان كثيراً ما يتعالى على الخطوب إلا أننا نراه في قصيدته التي رثى بها جدته متفجعاً لفقدائها، إذ قال: (٤٦)

ألا لا أرى الأحداث حمداً ولا ذماً

فما بطشها جهلاً ولا كفها حِلماً

إلى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى

يعود كما أبدي وبكري كما أرمي

لك الله من مفجوعة بحبيبيها

قتيلة شوقٍ غير مُلقحها وصما

أحنُّ إلى الكأس التي شربت بها

وأهوى لمثواها التراب وما ضماً

إن في ظلّ الهيمنة الذكورية لا بدّ للشاعر

من توظيف القناع ليتسنى له تمرير خطابه على أن

هذا القناع يكون وسيلة يحاول بها مقارنة أوصاف

الفحولة على نحو غير مباشر، وذلك حينما يذكر

بعض الصفات التي يمتدح بها أحد المقربين من المرأة

المرثية، ولعله يفعل ذلك بغية تحقيق أمرين في آن

واحد رثاء المرأة وإرضاء الذائقة النقدية التي بسطت

سلطتها على الشعراء، وألزمهم انتهاج هذا السلوك

في رثاء المرأة، وإن شئت قل في الرثاء بأنواعه كافة، إذ

استحسن النقاد قول أبي الطيب في رثاء أخت سيف

الدولة: (٤٧)

يا أخت خير أخ، يا بنت خير أبٍ

كنايةً بهما عن أشرف النسبِ

أجل قدركِ أن تُسمى مؤنثةً

ومن يصفك فقد سمّاكِ للعربِ

على أن النقد العربي القديم وهو يصدر عن

آراء نقدية في الشعر والأدب. يتأثر بالعوامل السوسيو

ثقافية، إذ تفرض نفسها بقوة على شتى معارف

الحياة. من هنا فالشاعر الذي يريد رثاء امرأة ما لا

بدّ له من أن يرثيها من خلال الرجل الذي ينتسب

إليها زوجاً كان، أو أباً، أو أخاً، وذلك بإضفاء الصفات

الحميدة إليه، هذا في حالة كون المرأة المرثية تنتمي

إلى الأسرة الحاكمة. وهنا نلاحظ اختلافاً وعدم تطابق

بين أفق النص وأفق انتظار القارئ فعلى الرغم من



فعلات معروف تقرر نواظري

فتكون أجلب جالب لبكائي

ما مات من نزع البقاء وذكره

بالصاحات يعد من الأحياء

وإذا كانت هذه الأبيات تتضمن جزءاً من

الجواب على السؤال القائل، هل لسان الشاعر يضيق وقريحته تصدأ عندما تكون المرثية امرأة؟. فذلك لا يعني أنه بمقدور كل الشعراء الدخول إلى معتك هذا اللون من الشعر.

ولا يفهم من هذا كله أن القراءة في مثل هكذا موضوعات تغلق الباب أمام القارئ الحاذق الذي لا شك أنه يستطيع ملء الفجوة بناءً على مبدأ يقول أنه لا وجود لقراءة أحادية وفقاً للمنظور النقدي الحديث.

نتائج البحث

١- يرجع النقد القديم سبب قلّة رثاء المرأة إلى قلّة الصفات التي تتحلّى بها فضلاً عن ضيق الكلام عليها، ويعدّ قصيدة رثاء المرأة التي تتوافر على هذه الصفات ذمّاً للمرأة في مقابل مدح قصيدة رثاء الرجل وعلى هذا يقع النقد العربي القديم في التناقض، الأمر الذي يعطي الشاعر مبرراً في أن تكون قصيدة رثاء المرأة لديه ذات خصوصية ونهج مغاير تماماً لقصيدة رثاء الرجل.

٢- يعدّ النقد العربي القديم قصيدة الرثاء صنو قصيدة المديح وبذلك فرض على الرثاء متابعة المديح في إنشاد القيم الذكورية وهذا يقود بدوره إلى تهميش المرأة ومن ثم وضع عقبة أمام الشاعر أو المبدع في ولوج هذا النوع من الشعر.

٣- أن موجّهات قراءة الشعر في النقد العربي القديم أسهمت بشكل إيجابي في تقبّل هذا اللون من الشعر تارةً وبشكل سلبي تارةً أخرى، وذلك تبعاً لمؤثرات الغرض الشعري والتقاليد الشعرية وهيمنة الشاعر الكبير.

٤- يعتمد الشاعر سواء في العصر الجاهلي، أو الإسلامي أو الأموي في رثائه غالباً إلى إبراز المثل الأعلى للجماعة، ولم يكن في أدبيات العرب أن تجعل من المرأة مثلاً أعلى للجماعة، الأمر الذي أدّى إلى غياب أو قلّة شعر رثاء المرأة.

٥- أن غياب رثاء المرأة في الشعر الجاهلي أعقبه حضور على استحياء في العصر الإسلامي والأموي ثم أصبحت ثنائية الغياب والحضور تسير جنباً إلى جنب وذلك في العصر العباسي الذي شهد فيه هذا الموضوع حضوراً مطلقاً، إذ كان رثاء المرأة ينحو منحنيين أحدهما يتحقّق فيه الحضور مضمونياً والآخر شكلياً.

٦- المرثيات من النساء بوصفهن أمهات الشعراء، أو زوجاتهم، أو نحو ذلك، والقول فيهن يعني انتهاك خصوصية لا يرضى أحد بإبرازها، لأن حجاب المرأة شيء راسخ في الذهنية العربية والإسلامية.

٧- افتقار المرأة في المنظومة السوسيو ثقافية إلى صفات تزاحم فيها الرجل في ميدانه وإن وجدت تعدّ من النقاط السلبية.

٨- بالرغم من المكانة التي حصلت عليها المرأة في العصر الإسلامي، إلا أننا نجد حضورها نسبياً في الرثاء، فأغلب الشعراء مازالوا متأثرين بالتقاليد الشعرية الجاهلية

٩- ان الشاعر العباسي على الرغم من العوامل السوسيو ثقافية التي أسهمت في تغييب المرأة بوصفها مرثية إلا أنه استطاع كسر أو تعديل أفق الانتظار من خلال إيجاد المعادل الموضوعي الذي اتاح له فرصة خلق صفات للمرأة تنافس فيها صفات الرجل مجارة للقيم الفحولية .

١٠- مثّلت الحضارة التي شهدها العصر العباسي عاملاً مؤثراً في تغيير موقف الشاعر من رثاء المرأة فضلاً عن موقف النقد الذي أفصح عن إعجابه لكثير من نماذج هذا الرثاء.



- ١- العمدة، ابن رشيقي، باب الرثاء، ١٤٧/٢.
- ٢- ينظر: اسس النقد الأدبي عند العرب، أحمد أحمد بدوي، ص ٢٤٦.
- ٣- العمدة، ابن رشيقي، ج ١، ص ١٢٣.
- ٤- العمدة، ج ٢: ١٥٤
- ٥- فحولة الشعراء، الاصمعي، ص ٤٦-٤٧.
- ٦- نقد الشعر، قدامة بن جعفر، ص ١١٨.
- ٧- العمدة، ابن رشيقي، ج ٢، ص ١٤٧
- ٨- نقلاً عن، النقد الأدبي وعلم الاجتماع، محمد دياب، مجلة فصول، ص ٦٩.
- ٩- زهر الآداب وثمرالالباب، ابي اسحاق الحصري القيرواني ١: ٤٠٤.
- ١٠- ديوان المتنبي، ج ١/٢١٦.
- ١١- تنبيه الأديب على ما في شعر أبي الطيب من الحسن والمعيب، عبد الله بن عبد الرحمن باكثير الحضرمي، ص ٩٦.
- ١٢- ديوان المتنبي: ج ٣/١٤٧.
- ١٣- ديوان المتنبي: ج ١/٢٢١.
- ١٤- الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني، ٤٧٦.
- ١٥- ينظر الصدق الفني في الشعر العربي حتى نهاية القرن السابع الهجري، د. عبد الهادي خضير نيشان، ٣٢٥.
- ١٦- العمدة في محاسن الشعر ولآدابه ونقده، ابن رشيقي القيرواني، ج ٢: ١٥٤.
- ١٧- الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، ص: ٧٣.
- ١٨- المرأة في أدب العصر العباسي، د. واجدة مجيد الاطراحي، ص ٢٧.
- ١٩- ينظر: الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام، حسين جمعة، ص: ٦٣.
- ٢٠- سورة التكوين الآيات: ٩، ٨.
- ٢١- ينظر: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الراغب الاصفهاني، تحقيق ١/٦٨٢.
- ٢٢- المرأة العربية في جاهليتها واسلامها عبد الله عفيفي: ج ٢، ١٦.
- ٢٣- ينظر المرأة العربية ج ٢: ٢٤.
- ٢٤- زهر الآداب وثمر الألباب، الحصري القيرواني،
- شرح: علي البجاوي: ١/ ٤٨٤.
- ٢٥- زهر الآداب وثمر الألباب، الحصري القيرواني، شرح: علي البجاوي، ١/ ٤٨٤.
- ٢٦- زهر الآداب وثمر الألباب، الحصري القيرواني، شرح: علي البجاوي، ١/ ٤٨٤.
- ٢٧- المرأة في الجزيرة العربية في القرن الاول الهجري "دراسة أدبية"، د. مصطفى عبد اللطيف جياووك، ص ٢٧٩.
- ٢٨- الديوان المنسوب إلى الامام علي (ع)، جمع عبد العزيز الكرم، ص ١٠٣.
- ٢٩- الرثاء في الشعر العربي، محمود حسن أبو ناجي، ص: ١٣٥.
- ٣٠- ديوان جرير ص ١٥٤-١٥٥.
- ٣١- سورة الحجرات آية: ١٤.
- ٣٢- ديوان الفرزدق، علي فاعور، ص: ٣٢٥-٣٢٦.
- ٣٣- نفسه: ٤٢٢-٤٢٣.
- ٣٤- المرأة في الجزيرة العربية في القرن الاول الهجري "دراسة أدبية"، د. مصطفى عبد اللطيف جياووك ص: ٢٨٠.
- ٣٥- ديوان أبو النجم العجلي، ص ١٦١-١٦٢.
- ٣٦- ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي، ١٤٩/٣.
- ٣٧- شرح ديوان الحماسة لأبي تمام أحمد بن محمد المرزوقي، غريد الشيخ: ٦٦٥-٦٦٤.
- ٣٨- ديوان ابن الزيات: تحقيق. جميل سعيد: ٦٧.
- ٣٩- العمدة، ج ٢: ١٥٦.
- ٤٠- الرثاء في الشعر العربي، محمود حسن أبو ناجي: ١٥٩.
- ٤١- العمدة، ابن رشيقي، ج ٢: ١٥٧
- ٤٢- ينظر: مقدمة ديوان ديك الجن: تحقيق أحمد مطلوب وعبد الله الجبوري: ٩٠-٩١.
- ٤٣- سقط الزند، أبي العلاء المعري، ص ٢٧٣-٣١١.
- ٤٤- ديوان أبي فراس الحمداني، شرح د. خليل الدويهي، ص ١٦١.
- ٤٥- ينظر العمدة، ابن رشيقي، ج ٢/١٥٤
- ٤٦- ديوان المتنبي، شرح البرقوقي، ج ٤/٢٢٦-٢٢٧.
- ٤٧- ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي، ٣/١٤٩.
- ٤٨- شرح ديوان الشريف الرضي، محمد محيي الدين عبد الحميد، ج ١/٣٦.



المصادر والمراجع

المرزوقي، غريد الشيخ، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ط ١، ٢٠٠٣ م.

١٦- شرح ديوان الشريف الرضي، محمد محيي الدين عبد الحميد، دار احياء الكتب العربية، ط ١، ١٩٤٩ م.
١٧- الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ٥، ١٩٨٦

١٨- الصديق الفني في الشعر العربي حتى نهاية القرن السابع الهجري، د. عبد الهادي خضير نيشان، الطبعة الأولى، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة ٢٠٠٧ م.

١٩- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبي علي الحسن بن رشيقي القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين، دار الجيل بيروت - لبنان، ط ٥، ١٩٨١ م

٢٠- فحول الشعراء، الأصمعي، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥.

٢١- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء. الراغب الاصفهاني، تحقيق: د. رياض عبد الحميد مراد، دار صادر، بيروت ط ٢، ٢٠٠٦ م.

٢٢- المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، عبدالله عفيفي، ط ٢، ١٩٣٣.

٢٣- المرأة في أدب العصر العباسي، د. واجدة مجيد الاطراقي، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين - الامارات، ط ١، ٢٠٠٢.

٢٤- المرأة في الجزيرة العربية في القرن الاول الهجري "دراسة أدبية"، د. مصطفى عبد اللطيف جياووك، مؤسسة المختار، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١١ م

٢٥- النقد الأدبي وعلم الاجتماع، محمد دياب، مجلة فصول، مج ٤، العدد الأول، ١٩٩٨.

٢٦- نقد الشعر قدامة بن جعفر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (د. ت).

٢٧- الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، علق محمد الجبوري، د. ت، د. ت، مكتبة لسان العرب .

٢- أسس النقد الأدبي عند العرب، د. أحمد أحمد بدوي، مكتبة نهضة مصر، ط ٢، ١٩٦٠ م .

٣- تنبيه الأديب على ما في شعر أبي الطيب من الحسن والمعيب، عبد الله بن عبد الرحمن باكثير الحضرمي، تحقيق رشيد عبد الرحمن صالح، منشورات وزارة الاعلام، بغداد ١٩٧٧ م

٤- ديوان أبي فراس الحمداني، شرح د. خليل الدويهي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٩٩٤ م.

٥- ديوان أبي النجم العجلي، جمع وتحقيق د. محمد أديب عبد الواحد جمران، مجمع اللغة العربية، دمشق، ٢٠٠٦ م

٦- ديوان ابن الزيات: تحقيق، د. جميل سعيد المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٩٠ م.

٧- ديوان جرير، دار بيروت، ١٩٨٦ م.

٨- ديوان ديك الجن، تحقيق أحمد مطلوب وعبد الله الجبوري، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٤ م.

٩- ديوان سقط الزند، أبي العلاء المعري، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٩٩٠ م

١٠- ديوان الفرزدق، تحقيق علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٨٧.

١١- ديوان المتنبي، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ١٩٨٦.

١٢- الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام، حسين جمعة، دار رسلان، ٢٠١٧.

١٣- الرثاء في الشعر العربي، محمود حسن أبو ناجي، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٩٨١ م.

١٤- زهر الآداب وثمر الالباب، أبي اسحاق الحصري القيرواني، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ط ١، ١٩٥٣.

١٥- شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، أحمد بن محمد

